من تراب (٢٥٨) أغراض الآدميين (*) الطريق!

بخلاف سائر المخلوقات الحية على المسكونة الأرضية، فإن الآدمى وحده هو صاحب الأغراض التى لا تنتهى، ولا تنحصر، وليس لها ثبات .. ولذا فإن أنماط سلوكيات الآدميين وصورها فى تغير دائب، ملحوظ هذا فى الجيل الواحد، وملحوظ أكثر فى مقارنة الأجيال المتعاقبة بعضها ببعض . وهذا يجعل ثبات أحوالهم وعاداتهم وأعرافهم وقوانينهم نسبيا على الدوام .. يتحرك ببطء أو بتسارع مع اشتداد حركة الأفكار والأذواق وتقلب ظروف الزمان والمكان، ناهيك بتعاقب الأجيال !

فالأحفاد لا يكادون يعرفون عن حياة أجدادهم إلاّ أسماءهم القريبة، ولا يجدون شيئا فى حياتهم هم وأساليبها التى يعيشونها اليوم يطابق قليلا أو كثيرا حياة الأجداد، مع أنهم يرددون فى بعض أو كثير الأحيان نفس الأسماء والمصطلحات والمسميات التى كان يتداولها الأجداد ويرددونها عن الأسرة والزواج والطلاق والميلاد والوفاة والعبادة والعمل والبطالة والدولة والحكومة والسلم والحرب . هذه المسميات وأمثالها تختلف مفاهيمها من جيل إلى جيل اختلافا يتزايد مع توالى الزمن وتعاقب الأجيال واقتران الأفكار وانتشار الأغراض أو تقلصها وما يتبع ذلك من انتقال وتنوع اهتمامات الآدميين من أمور إلى أخرى، ونسيانهم ما كانوا يقبلون عليه سلفا أو يحتفلون به من قبل، واحتفالهم فى حاضرهم هم الآن بما لم يكونوا يتصورونه أو يأبهون له !

(*) المال ٢٠٠٩/٥/١٢

فكم من ملة أو دولة أو ملك أو نظم سادت قرونا ثم انقضت وانطمرت هى نفسها أو عاداتها وتقاليدها، وحل محلها شيء لم يكن في السالف أو فى أوله شيئا مذكورا، ثم نما وكبر وقوى واشتد وانتشر حتى غطى على ما سبقه ومحاه، ليعيش بدوره زمنا ثم يرد عليه ما ورد على سالفه فيأخذ فى التحلل والانقراض والانقضاء بعد أن أخذ حظه من البقاء، ثم يطمره النسيان هو الآخر وينساه الناس بعد أن انمحى ولم يعد له وجود فى حياتهم الحاضرة، ولا يغير هذا المصير ما تحفظه كتب التواريخ من أخبار تناقلها من رددوها من مصادر أغلبها ظنى أو مبتور !

ومحاولات البشر كتابة وتدوين تواريخهم وتسجيل أمجادهم وأحداثهم - صحيحة كانت أو مبالغا فيها أو باطلة - وحنينهم لسماع الأخبار عن الأولين والماضين وما كانوا عليه - صادقة كانت أو مغالى فيها أو كاذبة - هى كأشواق المسافر الذى يشعر أنه راحل وحكاية القادم الذى يحس أنه بدوره سوف يرحل هو الآخر .. وفى هذا كله اعتراف ضمنى بالتغير والزوال وباستحكامهما فى حياة الآدمى ووجوده ونوع مقاومة لما يصحب ذلك من الخوف من العدم والمحو والنسيان !

ومقاومة الفناء والخوف من العدم تشغل معظم اهتمام الآدميين الأحياء فى جميع المجتمعات والعصور، بتخليد ذكراه وإكرام متواه . فهذه المقاومة وثيقة الصلة بإقامة وزخرفة المدافن والجبانات والآثار، وباقتناء الأموال وجمع الأمجاد وإنشاء الأسر ورعاية القرابات والاهتمام بالصداقات وتبادل الخدمات والمروءات والمودات والالتصاق بالأوطان والقوميات واعتناق الملل والعقائد والمذاهب .

ولن تجد لذلك شبيها أو مقابلا لدى غير الآدميين من الكائنات الحية، لانحصار أغراضها وطول ثباتها واكتفائها فى المحافظة على البقاء - بالتوالد كثرة أو قلة، والانتفاع بالمحيط فى التغذية المباشرة التى لا يتجاوز الادخار لها فصل الشتاء أو فصل الجفاف، وفى المأوى المتخذ فى كهف أو جحر أو حفرة أو عش أو مربض .. لا تمد هذه الكائنات أغراضها

ورغابها إلى ما وراء ذلك، سواء فى ذلك حيوان البر أو البحر أو نباتهما .

هذا بينما الآدمى دون غيره من الأحياء - يدرك فى وعيه وشعوره الوجود والعدم، والحضور والغياب، والماضى والمستقبل .. ويستطيع أن يتصور الغيب ويستشرف المستقبل ويسترجع الماضى وأن يتصور أمورا ممتنعة وأخرى ممكنة، وأن يغرق فى التعامل بين ما يبدو له محققا مؤكدا، وبين ما يمكن أن يأخذه على أنه جائز الحصول قابل للتحقق، وبين ما يعامله على أنه خيال مقصود به المتعة والاستمتاع ووهم محض أو كذب أو خرافة، وأن يرتاح إلى ما يقتنع به على أنه صدق وحق، وأن يرفض ما يوقن أنه كذب و زور .

لهذا كله امتدت وتمتد أغراض الآدمى إلى غير نهاية، إذ موضوعات الوعى والشعور والتناول والتعامل والقبول والارتياح والرفض والإعراض - لا تتناهى .. كما أن هذه جميعا عمليات نفسية ثباتها دائما نسبى ولا حد لتقلباتها وتحولاتها وتداخلها وتراكبها مع اختلاف الأزمنة والأمكنة والظروف والأشخاص والمستويات والأجيال .

فيقين الآدميين وممكناتهم ومحالاتهم وباطلاتهم قابلة للتغير والتغيير مع زيادة أو نقصان المعرفة واتساع وضيق الفهم . وواهم كبير الوهم من يتصور أن الأحوال تبقى كما هى بلا تغيير أو تبديل، أو أنه يمكن رد الحاضر لمحاكاة الماضى الذى كان !